# سيرة لسينما الفلسطينيّين

## توثيق ذاكرة الشعب

عماد الدين موسى

يعتمدُ الروائيُّ والناقد الفلسطينيُّ سليم البيك، في تناولهِ الأفلام السينمائيّة، على منهجيّة نقديّة تتّسم بالعمق والتحليل الدقيق، يتعامل، من خلالها، مع الفيلم، بوصفه نصًّا بصريًّا متشابكًا، يُفكِّك طبقاته الفنيّة والدراميّة بعين الباحث لا المشاهد؛ إذ يرى، في هذه الأعمال، تداخلاً حيويًّا بين البنية السرديّة والرموز البصريّة، وبين الواقعَيْن: السياسيّ، والاجتماعيّ، تُشكّله فلسطين المعاصرة، مُوليًا اهتمامًا خاصًّا بأساليب الإخراج وتفاصيل التكوين البصري، ومُتتبِّعًا ما تحمله من دلالات وإشارات تتجاوز سطح الحكاية إلى جوهرها المضمر.

في كتابهِ النقديّ "سيرة لسينما الفلسطينيّين: محدوديّة المساحات والشخصيّات"، الصادر عن مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة في بيروت (2025)، يُقدِّم البيك قراءة مُعمَّقة للسينما الفلسطينيّة، مُستعرِضًا التحوُّلات الكبرى التي شهدتها عبر العقود، مُحاولاً رسم صورة شاملة للإنتاج السينمائيّ الفلسطينيّ، من خلال تسليط الضوء على التحدّيات التي واجهتها السينما في ظلّ الاحتلال، والتشتّت الجغرافيّ.

سليم البيك

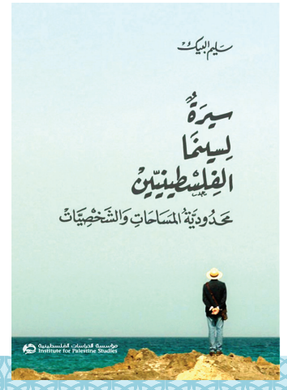






### منهجيّة السرد والتحليل

يتّكئ الكتاب، الذي يقع في (595 صفحة) من القطع الكبير، على فكرة رئيسة؛ مفادها أنّ السينما الفلسطينيّة لم تكن يومًا فنًّا ترفيهيًّا فحسب، بل وسيلة للمقاومة والتعبير عن الهُويّة، أيضًا، من خلال استعراضه لتاريخ السينما الفلسطينيّة، بدءًا من عام (1897م) وصولاً إلى عام (2024).

يتناول الكتاب، بمنتهى الرويّة والأناة، المحاولات الجادّة لتأسيس هُويّة سينمائيّة وطنيّة في مواجهة التحدّيات الاستعماريّة، مشيرًا إلى أنّ السينما الفلسطينيّة ليست أعمالاً فنيّة بحتة فحسب، بل جزءًا من السرد التاريخيّ الذي يوثّق الذاكرة الجماعيّة للشعب الفلسطينيّ، أيضًا.

يتّسم أسلوب المؤلِّف، في هذا الكتاب، بالعمق والتأمُّل، حيث يتنقل بين السرد التاريخيّ والنقد الفنّيّ، بطريقة سلسة تجمع بين التحليل السينمائيّ والقراءة النقديّة للمضامين، فيُبرز أهمّيّة السينما في تشكيل الوعي الوطنيّ الفلسطينيّ، معتمدًا على أمثلة من أفلام مؤثّرة، مثل "تذكرة إلى القدس" و"موسم الزيتون"، حيثُ يعرض كيف تترابط المواضيع السينمائيّة مع واقع الحياة اليوميّة للشعب الفلسطينيّ.

### مشكلة التشتُّت الثقافيّ

يُعالج الكتاب إشكاليّة الهُويّة السينمائيّة الفلسطينيّة في ظلّ الاحتلال، مشيرًا إلى القيود الجغرافيّة، والقيود السياسيّة التي تؤثّر في الإنتاج السينمائيّ، كما يتناول مشكلة التشتُّت الثقافيّ، وتأثيره على تعدُّد الأصوات السينمائيّة، موضّحًا أنّ السينما الفلسطينيّة تجمع بين النضال السياسيّ والبحث عن الذات؛ وبذلك يمكننا عدُّ الكتاب وثيقةً مُهمَّة، تفتح أُفقًا جديدًا لفهم السينما الفلسطينيّة بعيدًا عن النمطيّة والتعميم.

بأسلوبه النقديّ الرصين والسلس، يسهم سليم البيك في إثراء الخطاب الثقافيّ الفلسطينيّ، مُقدِّمًا رؤية مغايرة تتحدّى السرديّات التقليديّة، وتُعيد قراءة التاريخ السينمائيّ من زاوية إنسانيّة، وأخرى وطنيّة في آن واحد، منطلقًا من رؤية واضحة تتلخّص في أن السينما الفلسطينيّة ليست أداة تعبيريّة فحسب، إنّما هي، أيضًا، اشتباك مع الواقع، وتدوين بصريّ لمعاناة مستمرّة، طارحًا سؤالاً جوهريًّا: كيف يمكن للسينما أن تُعبِّر عن واقع محاصر، دون أن تفقد قدرتها على التجديد الفنّيّ؟!

يستعرض المؤلّف مجموعة من الأفلام المحوريّة، ليناقش كيفيّة تمكُّن المُخرجين الفلسطينيّين من خلق عوالم سينمائيّة تحت وطأة التحدّيات، مستعينين بمساحات محدودة، وشخصيّات تكافح لتثبت وجودها، وتتجلّى هذه الروح في أفلام مثل "عرس الجليل" للمُخرج ميشيل خليفي، حيث يُشكِّل الزفاف رمزًا للتحرُّر من قيود الاحتلال، وفي فيلم "الجنة الآن" لهاني أبو أسعد الذي يحفر في عمق النفس البشريّة بين اليأس والأمل.

### بين التوثيق والتجريب

ويبحث الكتاب في سمة محدَّدة، لطالما لازمت السينما الفلسطينيّة: محدودية المساحات والشخصيّات؛ فيرى البيك أن هذه المحدوديّة لم تكن ضعفًا، إنما شكّلت تحدّيًا إبداعيًّا دفع صُنّاع الأفلام إلى ابتكار أساليب سرديّة تُعبِّر عن الواقع بكلّ كثافته، والسينما، هنا، تتجاوز الاستعراض البصريّ، لتكون انعكاسًا لألم الجماعة، ولتفاصيل الحياة اليوميّة التي تُشكِّل نسيج الهويّة الفلسطينيّة، وفي هذا السياق تصبح الحدود الجغرافية جزءًا من الحكاية، وتعبيرًا عن الحصار والاقتلاع.

يُقدِّم البيك، في كتابه، أطروحة مهمّة: كيف يمكن للسينما الفلسطينيّة أن تجمع بين التوثيق الفنّيّ والتجريب الجماليّ؟ ويُحلِّل كيف أن بعض الأفلام تجاوزت السرد التقليديّ نحو سينما أكثر رمزيّة وتعبيريّة، لتُظهر الفلسطينيّ ضحيّةً، ومقاومًا في آن معًا، يعيش حكاياته الخاصّة بعيدًا عن الضجيج السياسيّ المباشر. في هذا السياق، تتقاطع رؤى البيك مع مساعي السينمائيّين الفلسطينيّين لخلق فضاء تعبيريّ مُتحرِّر من القوالب الجامدة.

### علاقة الفنّ بالمقاومة

يتميَّز الكتاب بخصوصيَّته؛ بصفته مرجعًا شاملاً للتعرُّف إلى السينما الفلسطينيّة وتاريخها، منذ نشأتها حتى اليوم. في سياق نادر ومعمَّق، يتناول البيك الأفلام ضمن إطار أوسع، يربط تطوُّر السينما الفلسطينيّة بالتحوُّلات الاجتماعيّة، والسياسيّة، والثقافيّة التي مرَّ بها الشعب الفلسطينيّ، مُقدِّمًا رؤية تأريخيّة تضع السينما في قلب الحركة الثقافيّة الفلسطينيّة؛ ما يجعله مصدرًا قيّمًا للباحثين والنقّاد وعشّاق السينما على حدٍّ سواء، كما يُعدُّ، في الوقت نفسه، مرجعًا فنيًّا يكشف عن ديناميكيّة السينما في مواجهة القيود والبحث عن الذات.

في خضمِّ كلّ هذا، يتجاوز سليم البيك حدود التحليل النقديّ، ويغوص في عمق الخطاب البصريّ للسينما الفلسطينيّة، مُقدِّمًا قراءة تأمُّليّة تثير الأسئلة، وتفتح المجال للتفكير، بدلاً من تقديم إجابات جاهزة.

كتاب "سيرة لسينما الفلسطينيّين: محدوديّة المساحات والشخصيّات" يتجاوز كونه جَرْدًا للأفلام، أو استعراضًا للتواريخ، ليُشكِّل نافذة على روح شعب، يحاول تحويل المعاناة إلى صورة، والحصار إلى مشهد سينمائيّ نابض بالحياة، بأسلوبهِ الرصين ومقاربتهِ المبدعة، لترسيخ وعي سينمائيّ جديد، يدفع إلى إعادة التفكير في علاقة الفنّ بالمقاومة.

يُذكَر أن سليم البيك ناقد سينمائيٌّ وروائيٌّ فلسطينيٌّ، مقيم في باريس، يكتب النقد السينمائيّ، والنقد الثقافيّ. صدر له، في الرواية: "تذكرتان إلى صفورية" (2017)، و"سيناريو" (2015)، و"عين الديك" (2022)، وفي النقد: "تأمُّلات في الفيلم الفلسطينيّ" (2023).